ليلة نور معتمة

(فرحة ما تمت)

الطبعة الأولى: 2020
الكتاب: ليلة نور معتمة (فرحة ما تمت)
الكاتبة: د. علا عبد العزيز رياض
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
تدقيق لغوى: نرمين عياد
إخراج فنى: محمود عنتر
رقم الإيداع: 7963 / 2020
الترقيم الدولى: 978 - 977 - 6689 - 43 - 5

٩ شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوار مدارس حسام الدين الخاصة - فيصل - الجيزة

موبايل: 01126026691 - 01061813345
01009823984

ليلة نور معتمة

(فرحة ما تمت)

نـــوفيـــــلا

د. عـلا عبدالعزيز رياض

إهــداء...

إلى قدوتي الأولى ونبراسي الذي أنار لي دربي، إلى من أعطاني بلا حدود، من رفعتُ رأسي عاليًا افتخارًا به؛ أبي الغالي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

إلى التي رآني قلبها قبل عينيها، واحتضنتني أحشاؤها قبل يديها، إلى شجرتي التي لا تذبل، إلى الظل الذي آوى إليه في كل حين؛ أمي الحبيبه حفظها الله.

إلى الذين هم ينبوع من العطاء، من وقفوا بجانبي وقدموا ليّ الكثير حفظهم الله زخرًا لي؛ إخوتي وأخواتي.

وإلى كل أصدقائي أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع.

الكاتبة

د/علا عبد العزيزرياض

أحداث هذه الرواية من الواقع ولكن السرد القصصي خيالي؛ حيث يقوم المؤلف بتغيير المادة الخام وتحويلها ومزجها بالخيال لصياغة مادة جديدة، تختلف عن المادة الخام إلى حد كبير، وباختلاق المواقف والشـــخصيات الوهمية والتلاعب بها وتحريكها حسب رؤيته.

د/ علا عبد العزيز رياض

في اليوم الثاني للسنة الميلادية الجديدة ٢٠١٣، كانت عقارب الساعة تزحف في بهجة وسرور. ونحو الخامسة مساءً، بدأ ظهور الغيوم المعتلية في السماء، وغياب أشعة الشمس الساطعة، واكتست بالغروب الساحر، وسقوط الأمطار الغزيرة على الأرض الممتدة، وانبعاث رائحة المطر في الهواء الطلق؛ فنبضت الحياة على الرغم من شدة البرودة أمام قاعة (فرحة العمر)، بتوافد المدعوين، في سيارات من ذوات الدفع الرباعي، ثم اشتعلت الزغاريد، وانطلق قرابة مئتي صوت مرة واحدة فارتجت الأرض مع سقوط المطر ورعد السماء. لمع الإسفلت عند مدخل القاعة بفروع الأنوار، وتتابع عديد من دبيب الأقدام إلى تلك القاعة بالطابق الأرضي؛ إذ كان العريس (نور) قد دعا جميع أقاربه، ووصل ما انقطع بينه وبين بعض الأصدقاء، وأرسل بطاقات دعوة إلى معارف لم يكن قد رآهم منذ زمن طويل، ليجمع أكبر قدر من النقوط، الذي سيكون فاتحة خير أو "سلفًا ودينًا" كما يقال، لتجهيز مشروعه الخاص "محل للهواتف المحمولة".

انتظر الأهالي والأصدقاء حضور العروسين، أكثر من ساعة؛ حيث ذهب العريس ليصطحب عروسه من عند الصالون الحريمي "الكوافير"؛ حيث كانت تتهيأ للعرس، وأمام إصرار صاحبة الصالون (مدام غادة) إنها مَن يجمل (ليلة)، كنوع من النقوط، (ودا أقل واجب)، فهم جيران السعد والهنا، فصالون (مدام غادة) يقع في مواجهة عمارة والد العروس. فقامت بتزيين شعر العروس وتكحيلها ونثر الأبيض على وجهها وصبغ شفاهها. وبعد الانتهاء تحرك العريس وانطلقت الزغاريد دفعة واحدة من كل الحناجر، متوجهين إلى قاعة (فرحة العمر)، التي تقع على مسافة خمسة كيلومتراتٍ من عمارة والد العروس.

عندما وصل العروسان إلى مدخل القاعة، استقبلتهما زفة مشاعل بمزمار وصوت رنان للزغاريد، فهذه (حبيبة)، الأخت الصغرى للعروس صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت في أعراس الآخرين. وهذه (چاكلين)، صديقة العروس، جميلة، وحلوة الحديث، ومهزارة، ولها

مع (چون) قصص وحكايات، تزغرد لأنها تفرح لصديقة عمرهـــا. والجميل عندما تزغـــرد أم العريس فيرد عليها النساء، وتسمع زغاريدهن فتزغرد من جديد.

وعندما دخل العروسان القاعة البسيطة، فأشد ما حاز الإعجـــاب هو تألق (ليلة) بفســـتانها الأبيض الطويل، الذي يميزه دانتيل مرصع بالكريســـتال الفضي والوردي الفاتح.. والذي استأجرته بمبلغ لا بأس به، وكانت طرحة الفستان مسرفة الطول؛ فترفعها لها أختها (حبيبة) التي كان ثوبهـــا ذا لون أصفر باهـــت، تحليه باقة من ورد صناعي أحيط بالخضرة.

العريس (نـــور) متألقًا هو الآخر في بدلته البيضاء، وجوربيه الأبيضيـــن، وحذائه الأبيـــض اللامع، وكأن العروسين ملكان يهبطان من السماء.

افتتح العرس بموسيقى لأغنية (طلي يا حلوة) لماجدة الرومـــي على دي چـــي، وكان الجو مغطـــى بالليزر المركزي والدخان، بعدها شـــرعا العروسان في الرقص ببطء، ثم بســـرعة جنونية، وأخـــذا يدوران فيدور معهما

كل مَـــن حولهما، حتى التف ذيـــل ثوب العروس حول بنطلون العريس، فالتصقت أرجلهما. ركز (نور) بصره في عينيها الزرقاوين.. وخصلات شـــعرها المتسدلة في تموج على كتفيها. رفعت هي بصرها نحوه، وســـرعان ما أحســـت بنشوة جميلة تسري في أعصابها وتوقفا عن الرقص لحظة، ثم استأنفا.. وسط تحديق المدعوين.

مع ظهور المطرب الشـــعبي والراقصة على مســـرح القاعة "البســـت" بدأ (بوله)، نبطشـــي الفرح بتحية والد العريس، (أبو الواجب كله الحاج أبو نور يهدي العريس ١٠٠٠ شـــمعة)، ليفتح باب النقوط، الذي أصبح فرضًا وواجبًا ولا يســـتطيع أحـــد من المدعويـــن الفرار منه، وقيمـــة مبلغ النقوط الذي يؤدي هبوطًا أو نزولًا مرتبطة بشـــخصية دافعها أو بمقدرتـــه المالية، أو ما بينه وبين العريس من واجبات ســـابقة. وتميز (بوله) بخفة الظل والفهلوة، وكل ما يقوله يكون على ســـبيل التحفيز لمقدم النقـــوط من أجل دفع المزيد منها، فهو يعمل على وتر حســـاس هو رغبة الحاضرين في المباهاة بتقديم النقوط

(استعراض عضلاتهم)، فيعمل بينهم حالة من المنافسة مستغلًا رغبتهم في الاستعراض.

بعد تحية والـــد العريس، ردد (بولـــه) أكثر من مرة في مكبر الصوت اســـم الحـــاج (درغام)، أغنى أغنياء المنطقة، كلما شعر هذا الأخير بهيبته ووقاره.

مع كل رعشة من جسدالراقصة وكل حركة أو إيماءة، أو نظرة في تناغم مع إيقاع الموســـيقى التي تصاحبها، ينهض (ســـليم)، صديق العريس إلى "البســـت" للنقوط ويفوز برقصة معها، متحرّشًـــا بها، مـــرددًا (بوله) في مكبـــر الصوت (٧ عماير أدب، ٣٠٠ شـــمعة، ٣٠٠ شـــمعة)، بينما إذا صعد (چون)، ابن عمي (إســـكندر المســـيحي)، صاحب محل المصوغات في المنطقة هو الآخر إلى "البســـت" من أجل أن يفرح بليلة العمر مع صديقه، وقد امتاز عن الباقين – كان له بشرة المترفين.. بشـــرة يضفي عليها رونق الصحة والغنى.. أما نظرته للراقصة، فكانت تعبر بعصبية حدة الشهوات التي تجد أحيانًا يومًا ريًّا وإشباعًا! وهتف (بوله) بحنكة ودهاء، في

مكبر الصوت (أغنى أغنياء الصاغة.. الباشـــا.. الأخ والحبيب والصديق چون، ٥٠٠ شمعة منورة).

وفجأة ظهر على "البســـت، عمـــي (مجدي)، الرجل البسيط، صاحب كشك الســـجائر في المنطقة، منتزعًا بيديـــه المرتجفتين مكبر الصوت من (بوله)، فقد انتهج لنفســـه طريقًا مختلفًا فيما يتعلق بـــأداء النقوط، فأعفى نفسه لأن ظروفه المالية ضيقة (لا يملك إلا قوت يومه)، مرددًا في الميكرفون ربنا يسعدكم ويهنئكم، "قولوا آمين"، ودموعه حبيسة وراء قضبان الفقر، ويعتبر عدم النقوط منقصة في حقه.

كانت القاعـــة مزدحمة بالمدعوين، فكان المرء يرى منهـــم متكئين على جميـــع المائـــدات، وآخرين يقفون عند المدخل والباب، وصديقات العروس كن يســـيرن ضاحكات، متوردات الخدود، فاتنات. أما الأطفال فكانوا يمرحون ويلعبون هنا وهناك بملابسهم الجديدة..

في أثناء فترة الاستراحة، قام أهالي العروسين بتقديم وجبـــات مغلفـــة، عبارة عن (قطعة كفتـــة، وقطعة من

الخبـــز)، فصُدِم المدعوون بخيبـــة أمل، ممصمصون بشفاههم على هذه الوجبات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. وقاما العروسان بخلع «الدبل» من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى، وكان (نور) حاضر النكتة والفكاهة، وكان يرد في بشاشة، على ما وجهه أصدقاؤه إليه من غمزات وفكاهـــات ومجاملات. أما العـــروس، فلم يظهر عليها ســـلوك ثابت، فتارة تبتســـم، وتارة صامتة، فهي عذراء يلجمها الخفر. كانت خيوط الفجر الأولى ترتسم في الآفاق عندما انتهى العـــرس.. ودار الحديث لبضع دقائق، ثم تبادل الأهالي والأصدقاء التهاني وسط زغاريد النساء. وتأهبا العروسان لركوب سيارتهما المزينة بالورود، تحت رذاذ المطر.. وأخذا يستنشـــقان في نهم الهواء الرطب الذي أرســـل في كيانهما انتعاشًـــا.. ودخلا إلى عش الزوجية الخاص بهما، وعبقت في أنوفهما رائحة الأثاث الجديد فقد تشـــاركا معًا بـــكل حب وطمأنينة ورضا في اختياره من «دمياط» المدينة الأشهر في صناعتها، كما أن بهـــا أقل بكثير من أســـعار المعارض الموجودة في

المدن الأخرى. أما الأشياء الرفيعة ومستلزمات الأفراح؛ فغالبًا اشـــتراها العروســـان من منطقة «درب البرابرة»، وهو مكان يتجمع فيه كل ما يتطلبه الزواج، فضلًا عن أســـعاره التي لا تقارن بالبضائع نفسها المعروضة في الأماكن الأخرى، ولنشأة سوق «درب البرابرة» أكثر من رواية تاريخية، إحداها تقول: "إن هذه المنطقة منســـوبة إلى قبائل البربر ســـكان شـــمال إفريقيا وبلاد المغرب، التي جاءت إلى مصر مع جوهر الصقلي في أثناء فتح القاهرة، واتخذوا هذا المكان محلًا لإقامتهم، ومع مرور الوقت تحولت إلى سوق خاصة لبضائع الزواج". ورواية أخرى تقـــول: "إن جماعة من البربر جاءت إلى القاهرة للعمل كخدم لدى «الباشـــوات» فـــي أثناء حكم محمد علي باشـــا الكبير في بداية القرن التاسع عشر، ونظرًا لتعايشـــهم في شـــكل مجتمع صغير كانت إقامتهم في «درب البرابرة» الذي أخذ منها هذا الاسم".

وداخل غرفة النـــوم، انطلقت رحلة العشـــرة والألفة التي ســـتدوم إلى الأبد، مع إعلان أن الأيام المقبلة هي

أجمل أيام حياتهما.. وقالت (ليلة) بصوت خافت ونظرة ساحرة: "الحمد لله على نعمة حبك". وقال (نور)، وهو يمسك يدها بكل قوته وعنفوان شبابه: "اللهم اجمعنا على حبك في الدنيا والآخرة، آمين يا رب". وتوجه (نور) إلى السرير، وتسللت إليه (ليلة)! ثم فطنت إلى أنها كانت ترتعش من البرد، فخلعت ثيابها واندست تحت الأغطية بجواره، الذي بدأ حديثه المخدر وهو يهمس إليها، ويطبع على فمها، ثم على ظهرها قبلة بملء فمه، وقلبه مفعم بما سيناله في هذه الليلة من لذات (ليلة الدخلة)، وانبعثت الطمأنينة إلى نفسه، والراحة إلى جسده.

وتنفس الصبح في سرعة، وقد ارتفع الضحى، أما ساعة اليقظة قد حانت، لكن أيٌّ من النوافذ والأبواب لم تفتح، وأيٌّ من العروسين لم يستيقظ، سوى نباح كلب من حين لآخر!

في عصر اليوم الثاني (ليلة الصباحية)، قام أهل العروسين بتحميل المؤن والكعك و«البسكويت» إلى العروسين، حاملين تلك الأغذية مما لذ وطاب في

«أســـبتة» مصنوعة من الخوص تغطيها «البشـــاكير» البيضاء، ليهنئوا ويباركوا ويطمئنوا. وبعد انتظار، أخذوا يطرقون البـــاب الخارجي طرقًا عنيفًـــا متواصلًا، وهم يقولون: "ماذا جرى! عروسان نموسيتهم كحلي"، ويقول والد العريس: "اصحى يا بن الكلب، ليل الشتاء طويل"!

وعـــاودوا ضربات باليد، ثم ضربات أرجل تهز الباب الكبير ذا المسامير.. بغير انقطاع.. والباب يظل مقفلًا، ولم يحاول أحد من العروسين أن يقترب من الباب.

كان الأهـــل يتســـاءلون: "ماذا حـــدث لهما"؟ وبعد اضطراب وقلق الأهل، تم كســـر الباب، فأحدث فتحه قرقعة قوية. حدث هرج مفزع اندفع الأهل مسرعين إلى المطبخ، ثم إلى الحمام؛ حيث كانت تنبعث رائحة غاز خانقة.. وفجأة انتشـــر صدى الصراخ والبكاء: العروس غارقـــة في دمائها في الحمام! وكان العريس يحتضر، نبضه غير متساوٍ وضعيف لا يكاد يسمع، أخذت قطرات العرق تتضح إلى وجهه الضارب إلى الزرقة، وأســـنانه تصطـــك، وعيناه اللتان اتســـعتا تنظـــران في غموض

حولها. وعلى سؤال من فعل بكما هذه الجريمة الشنعاء؟ لم يستطع أن يرد إلا بهزة رأس غير مفهومة، وما لبث أن قاء دمًا وازدادت شفتاه التصاقًا وتصلبت أعضاؤه.. وفارق الحياة! حتى هرع آخرون من (الجيران وبعض المارة صدفة في الشارع) إلى مكان الصراخ والنواح في مثل لمح البصر. عندئذ، أخذ الموجودون ينشرون خبر قتل العروسين، مذهولين، يضربون كفًا على كفٍ، وتسيل دموعهم حرقة على زينة شبابهما.. ويقولون في حسرة: "(نور) و(ليلة) وما أخذنا عليهما شيئًا في يوم من الأيام. إنهما لا يسيئان إلى حتى نملة"!

وتضاربت الأحاديث بين الحاضرين، فهناك من يقول: "إن العريس قتل عروسه، لأنها غير عذراء والشيطان شاطر"، وهناك من يقول: "إنهما مسمومان"، وهناك من يقول: "إنهما مخنوقان، أو كان هناك ماس كهربائي"، ومنهم من يرجع الأمر إلى الله ويقول: "الله أعلم"! حدث هذا كله (...) في ساعة تقريبًا، والناس مشدودون ومذهولون قد جمدهم ما يحدث في أماكنهم. حتى تلقى

رئيس مباحث القسم بلاغًا من أهالي العروسين يفيد مصرعهما داخل حمام شقتهما، وسرعان ما توجه المقدم (أحمد فؤاد)، والضابط (أشرف مراد) إلى مكان الحادث، وتحرر محضر بالواقعة، وطلبت تحريات المباحث من الطب الشرعي تشريح الجثتين! أخذت أم العروس (السيدة أشجان) تنوح، وتندب حظ ابنتها العروس في صباحيتها التي لم تستمر إلا صباحًا واحدًا والصباح الذي يليه كانت في المشرحة.

ونُقِلت الجثتان إلى المشرحة، وسط صراخ وبكاء الأهل والأصدقاء، ورافقت الأم جثة ابنتها إلى هذا المكان الذي ينبعث منه رائحة عفنة بشعة، منبعثة من البواليع، تمتزج بهواء بارد تستنشقه من فوق مزبلة قذرة، ممتلئة بقطع من القطن المعفن، الملطخ بالدم الفاسد! وكلما استنشقت الأم هذه الرائحة النتنة؛ تندب وتلطم فخذيها لطمًا قويًّا. إن هذا النحيب الذي يعبر عن الحسرة والغضب، نفذ حكم الأعدام على ابنتها العروس. هناك دائمًا بعد موت إنسان عزيز، شيء يشبه الذهول الذي يملأ الجو، ذلك

لأنه من الصعب فهم هذا العدم الطارئ، والاستسلام لتصديقه، وشيء يشبه الندم يملأ أركان الضمير اليقظ، إذا آمن به واعترف بوجوده. فجأة انطلقت الأم جريًا إلى قسم الشرطة! وكأنها تريد إطفاء نار مشتعلة فيها، ووجد وكيل النيابة (شريف بيه) الذي تميز بالبراعة، ورقة الإحساس، وقوة الملاحظة، ودقة العمل، أن حضور الأم وإصرارها على مقابلته، هو فرصة ذهبية، مقدمة على طبق من فضة لمعرفة ملابسات هذه الجريمة؛ فأمر بدخولها، فكانت تملأ المكان بضجيج صراخها ونواحها وهي تقول: "أنا أعرف القاتل.. القاتل هو.. ثم ظلت صامتة بضعة ثوانٍ.. فتوجه إليها، وقال بإيماءة عطف: "احكي يا (سيدة أشجان)". قالت بصوت مختنق، ونظرة مهمومة إليه: "صدقني يا بني أبوها هو الذي شرع في قتلها، كما فعل من قبل مع أختها (زينة) وهي صغيرة.. خمسة وعشرون سنة وأنا كاتمة في قلبي حسرتي على بنتي (زينة) اللي قتلها أبوها من غيظه وانتقامه ليّ أنا شخصيًا، لكي يحرق قلبي عليها، لعدم إنجابي الولد اللي

يحمل اسمه، اقبضوا عليه هو القاتل، قتل من قبل ابنتنا (زينة)، وبعدين أخذ معاه في الطريق (ليلة). أنا سأسرد مأساتي الحزينة، فهي بئر ليست لها غوار، حتى تنطفئ النـــار التي بين ضلوعي ويخمد بركان الهم والغم الثائر في صدري".

قدم إليها كوبًا من الماء، وقال لها تفضلي احكي (يا سيدة أشجان)، نحن معكِ بكل آذان مصغية.. وشرعت في السرد قائلة: "كانت (ليلة) و(زينة) توأمين، وفي يوم مشئوم وكئيب في بداية الســـنة الدراسية للصف الثاني الابتدائـــي لهما، في ذلك اليوم وكمـــا هي عادة (زينة) تلعب وتجري وتضحك وتتشـــاقى مع (ليلة)، وقد أخذت تلون بالألوان المائية والخشبية فرحة بأنها كبرت، وبأنها تدرس بالمدرســـة، أخذتها اللهفـــة بالكتابة على جدران الحائط في غرفة أبيها؛ وإذ بها وهي على تلك الحالة من الســـعادة الغامرة، رآها أبوها، فأثاره الغضب من منظر تلك الرسومات والكتابات على الجدران، فلم يستوعب مع غضبه العارم والشديدالذي تملكه وأعماه.. ذهب إلى تلك

البراءة وأخذ يضربها بكل ما أوتي من قوة، ولم يكتفِ بما أحدثه من ضربات بجسمها الصغير؛ بل أحضر حبلًا ولف به يديها الصغيرتين الدقيقتين وحبسها بالمطبخ. وقال لي: "لا تدخلي عليها ولا تطعميها، ولا تسقيها، ولا ولا ولا... جميع الأشياء محرمة على تلك التي كانت من قبل لحظات في أوج سعادتها وهي تكتب وترسم.. فقد أصبح كل شيء أسود، ولا ترى أي شيء ولا تتذكر أي شيء عملته سوى العقاب. وتركتُ مجبرة ابنتي هكذا إلى صباح اليوم التالي، ولكن قلبي أحس بها بذلك الصباح وذهبت لأراها وهي على نفس حالها كما تركتها بالأمس، فلمست جبهتها؛ وإذ بها حمى، فهي تهذي من السخونة، ويداها المربوطتان لونهما مثل الليل الذي قضته بالظلام، فقد أصبح لونهما أسود.. وكان قلبي يتقطع عليها وعلى بكائها الذي يوقظ الجماد ويجعله ينوح بدلًا عنها. وأخذتها إلى أقرب مستشفى وهناك جاءت المفاجأة الموجعة والمؤلمة... يجب بتر يدي ابنتي! لأن الدم احتبس بها وقد أصبح بها مرض (الغرغرينا)، وبعد

إجراء العملية غادرت (زينة) الدنيا بصراعاتها، وآلامها، وقلقهـــا.. تركتها لنا ورحلت.. بعد أن أودعت في كبدي وشـــمًا من الألم لا يمحى.. وفي قلبي جرحًا لا يندمل.. وفـــي عيني دمعة متجمدة! حين كنت أراها بين أخواتها تتفجر نشـــاطًا وحركة، وتضج حيوية وإقبالًا على الدنيا بجمالهـــا الأخّاذ وذكائها الوقّاد، وعن تفوقها الدراســـي وقدرتها على التعامل الرائـــع معي ومع أخواتها.. دون إدانة وعقاب للجانـــي؛ أبوها الجاني القاتل، وأنا كمان قاتلة لأنني تســـترت عليه، خوفًا من الفضيحة وتشرد بناتي (عزيزة، وليلة، وحبيبة). اســـتحملت فوق طاقتي وصبري إنســـانًا مجردًا ومعدومًا من معاني الإنسانية، كـــزوج، وكأب لبنات يحتاجن إلى عطفه وحنانه، فنحن وإن كنا (أنا والبنات) في حالة ســـرور إلى أن يحضر (أبوهم) فتجد البنات يتقافزن متفرقات هلعات، فهو على الدوام عابس، ومكفهر ومتبرم وناقم.. كان يشتم ويسب، بكلماتٍ ســـاخطة ومكررة: (ربنا يخدكم، حمم بليني بيها يا رب).. على أن الأيام تتابعت، وأقبل ربيع في أعقاب

شـــتاء، وخريف في ذيل صيف.. وما لبث كل شيء أن تســـرب رويدًا.. أو بالأحرى، رســـب في أعماق النفس كثقل جاثم! حتى عصفت بي أمراضٌ كثيرة منها الضغط والسكر والهشاشة، كما ضعف نظري كثيرًا، وتحول لون شعري إلى اللون الرمادي مثل حياتي! بل هو أفتح منها قليـــلًا! لم أعترض قط على مـــا وهبني الله من البنات، فقد كنـــت أمارس حياتي كأم وصديقـــة لهن. وبعد أن كبرن البنات تحولت حياتنا لرحلة عذاب نفســـي وتهديد دائم من زوجـــي الذي ازداد جبروتًا وغلظة في التعامل معي ومع بناتي. علـــى الرغم من أن الله قد أنعم عليه بنعمة الصحة والمال، فإنـــه ضيّق الخناق علينا! وبما أننـــي امرأة ربة منزل، قـــررت ليلة أن تبحث عن عمل لتساعدني في تربية وتعليم أختها (حبيبة)، بينما (عزيزة) تهتم بشؤون البيت.. وبدأ القلق يمزقني على مستقبلهن، خصوصًا مـــن تصرفات ابنتي (حبيبـــة)، الطالبة في معهد الخدمة الاجتماعية، كانت في مشـــاجرات دائمة مع (ليلة) بســـبب ســـلوكها وتصرفاتها الطائشة.. وردد

وكيل النيابة: "كلامها وسلوكها وتصرفاتها الطائشة! اشرحي بالتفصيل".. فقالت: "قبل زواج أختها (ليلة) بأسبوع اشتدت مشاجرة بينهما بسبب رجوع (حبيبة) إلى البيت في وقت متأخر وشعرها الأسود الجميل قد قُص إلى ما فوق رقبتها وصبغ بلون أصفر، وبدت تضع سماعة المسجل في أذنيها، لقد اختلفت تمامًا، بوضعها جميع أنواع وألوان المساحيق في وجهها وكأنها أتت من عُرس أو حفلة. وكانت تثور (ليلة) وتقول ملعون أبو اللي اخترع الإنترنت، فكنت عارفة إنه السبب في خدش حيائك فإصرارك على دخوله إلى غرفتك، تسرب الشك إلى قلبي فقد رأيتك بعيني ذات ليلة وأنتِ تتحدثين مع شاب في وضع حرام وتمارسين معه الجنس الإلكتروني، وبعدها شاهدتِ فيلمًا إباحيًّا. لعنة الله عليكِ وعلى أمثالك، وضربتها (ليلة) على خدها وقالت لها: "اصبري عليّ لما يعدي الفرح والخير ربنا هيعمله"، وكانت ترد عليها (حبيبة) بإيماءات، كما لو كانت تستحلف لأختها ورفعت حاجبها الأيمن وقالت: "إن كان ليكِ عمر يا حبيبتي"!

وصرخت الأم وطلبت من وكيل النيابة أن يقبض على زوجها وعلى ابنتها (حبيبة) ثم انهارت الأم وفاض سيل من الدموع من عينيها".. فقـــال لها وهو يدخن: "كفاكِ بكاء.. يا (ســـيدة أشجان) ووفري دموعك إلى الغد! هل لديكِ من أقوال أخرى"؟ فأجابت: "نعم، بصوت مظلم.. ابنتي عزيزة!". ســـألها: "ماذا تقولين"؟ فأجابت: "ابنتي عزيزة.. البكرية"! فسألها بحماس وهو متلهف: "ماذا بها هي الأخرى"؟ عزيزة، فاتها قطر الزواج بسبب الدراسة، وفي النهاية، لا نالت وظيفة ولا كســـبت عريس. عزيزة، محافظة للغاية، على عكس حبيبة، ترفض أمورًا عديدة، مثل ســـماع الأغاني علنًا والحديـــث المطول بالهاتف، من نعم الله أنها كانت حريصة على دراســـتها وحريصة علـــى الوصول إلى قدر مرضي فيهـــا، كذلك من نعم الله عليهـــا أنها أحبت القراءة بأشـــكالها كافة، وكثيرون يطلقـــون عليها (شـــخصية ناضجة، ومثقفـــة، ومرنة، وفاهمة، وقادرة على تحمل المســـؤولية...)، المهم، إنها تخرجت وفرحت بالتخرج ولم ييسر الله لها الحصول على

وظيفة طيبة، وبقيت تنتظر الوظيفة والعريس، وبالفعل! طرق الباب شـــاب جميل.. ووســـيم، ذو خلق ودين.. ولما علمت عزيزة بقـــدوم العريس إلى البيت، انخرطت في البكاء، وكأنها في مأتم.. في مشهد يستدر الدمع.. واعتلى وجهها الخجل والحياء ولبست أحلى ملابسها.. وتزينـــت وتجملت.. ويا ليتها لم تفعل! فالعريس لم يكن قد جاء لها؛ بل كان يقصد أختها الوسطى (ليلة) وعندما علمت بذلك، حاولت عزيزة أن تتصابر، أو أن تتظاهر بالتجلد، ولكن الموقف كان أشـــد مـــن ذلك كله.. فبعد خطوبة (ليلة)، أصبحت عزيزة حبيسة غرفتها.. وأخذت عزيـــزة، تزداد نحولًا، وخداها يزدادان شـــحوبًا، ووجهها يســـتطيل.. فكم من مرة كانت تنظر في المرآة فتبكي، وكم مرة ســـمعت لمزًا وغمزًا؛ فانكسرت.. ابنتي عزيزة.. ترى الفتيات من حولها فرحـــات، فهذه مخطوبة، وهذه تستعد لحفل زفافها، وتلك أم لطفلين.. أما هي، فحبيسة غرفتها، وأســـيرة أنّتها.. فربما الغيـــرة والعزلة أصابتها بفكرة الانتقام من أختها، فهي كانت تريد (نور) لنفسها!

وبعد أن انتهت الأم من حديثها الذي استغرق ساعتين، وكانت الساعة نحو العاشرة مساء من يوم اكتشاف الجريمة نفسها. أمر وكيل النيابة بإحضار واستدعاء كل من والد العروس، وحضور كل من حبيبة وعزيزة، لمواجهتهم بما قالته السيدة أشجان، قائلًا بصوت به نغم: "فتش عن النسوان، تعرف سبب الأحزان"، ممصمصًا بفمه قائلًا: "الله يرحمك يا توفيق الحكيم، كلامك كله حكم ومواعظ".

وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا من اليوم التالي، وقفت كل من حبيبة وعزيزة، كل منهما على انفراد، أمام وكيل النيابة، وقال الأخير سائلًا حبيبة: "اسمك؟ وسنك؟ وعنوانك؟". فقالت: "حبيبة عادل فودة، عشرون عامًا، الفرقة الثانية، معهد الخدمة الاجتماعية، أقطن مع أسرتي الطابق الثالث من عمارة والدي... فقال بحرارة، وهو ينظر إليها بقساوة بعينيه الدقيقتين المتعبتين.. سائلًا حبيبة: "ما هي طبيعة العلاقة بينك وبين المجني عليهما"؟ فأجابته بكل ثقة: "أختي وحبيبتي ونور عيني،

ونور، إنســـان مؤدب ومحترم، الله يرحمهما وينتقم من الظالـــم". أما هو فقد ثبت نظراتـــه عليها، قائلًا: "كلام جميل، بس الذي نعرفه وأخبرتنا به السيدة الوالدة أشجان، مشـــاجرتكما معًا، وحديثك معها وأنتِ تقولين لها: «إن كان ليكِ عمر يا حبيبتي»! واســـتطرد قائلًا: "هو أنتِ كنتِ عارفة إنها هتموت، على الرغم أنها كانت تســـتعد لحفلـــة زواجها! ولا أنتِ بتنجمـــي وعليكِ عفريت.. ولا عزرائيـــل على علاقة بيكِ! لا داعي للإنكار". وقد نزل كلامه عليها كالصاعقـــة، وانهارت حبيبة، معترفة أنها كانت تكره أســـلوب أختها معها فـــي المعاملة، وتمقت سيطرتها.. أنا كنت مغتاظة منها وكنت أدبر لها مكيدة، وليس أدبـــر لها جريمة قتل! فتابع حديثها بفطنة قائلًا: "ما هي هذه المكيدة"؟ قالت: "تعرفت على صديقة جديدة لي في المعهد، تدعى فاتن وصرت أقضي معظم وقتي معها، ســـواء في المعهد، أو فـــي البيت حيث نتحدث عبر الهاتف طوال الوقت، وكانت أختي ليلة، تنصحني بالابتعاد عن هذه الصديقة فهي ســـيئة الســـمعة، ولم

أكترث لنصيحة أختي كعادتي، وتمسكت بتلك الصديقة أكثـــر وأكثر، صرت أزورها في منزلها وهي تزورني في منزلي، عرفت بأنها على علاقة بشاب يدعى مصطفى، وهو صديق لسليم ولنور عريس أختي الله يرحمها، هذا الشاب كان يسكن في الطابق الرابع لعمارة والدي. وفي يوم من الأيام، أخبرتني فاتن بأن سليم مغرم بي وبقيت تلح علـــيّ وتحاول أن تقنعني بأننـــي يجب أن أعيش مثل باقي الفتيات، وأن أجرب الحب وأســـتمتع بحياتي وشـــبابي، وأحصل على المال بســـهولة دون أن أحتاج لمساعدة أختي ليلة خصوصًا بعد مرض والدي، فالأمر لا يختلـــف كثيرًا، فهـــو كان ينفض يده من مصاريفي، ترددت كثيرًا، ثم دفعني إلحاحها الشـــديد إلى التكلم مع سليم، بواسطة الهاتف، لقد كنت خائفة في البداية، ولكنني تعودت على التحدث معه بشكل تدريجي، ثم تعلقت به وتعودت على ســـماع صوته، ورؤيته دائمًا سواء داخل شقته؛ حيث كنت أذهب إليه خلسة دون أن يراني أحد، أو على الإنترنت، فكانت أحاديثه شيقة ممتعة بالإضافة

إلى أنه أعجبني شكله ووسامته.. وقد عرفت ليلة بمدى علاقتي بسليم، ذلك لأن صديقتي العزيزة صارت تحكي للجيران عن مغامراتي مع ذلك الشاب متباهية «بأن مفيش حد أحسن من حد في الأخلاق»، فتأذت ليلة كثيرًا وحاولت أن تنصحني بالكلام الطيب فلم أستمع لها.. وبعد أن فشلت جميع محاولاتها أخذت تهددني بكشف أمري أمام أهلي.. وخشيت من تهديدها فقررت أن أمسك عليها ذلة تجعلني أهددها بها فلا تستطيع أن تفضح أمري، فكرت كثيرًا فهداني الشيطان اللعين إلى تلك الخطة الحقيرة فنفذتها بلا تفكير.. في البداية قمت بكسب ثقة ليلة، حتى تسمح لي الفرصة المناسبة لتنفيذ خطتي.. أخبرتها بأنني نادمة على علاقتي بذلك الشاب، وأنني قررت الاستماع لنصائحها في التخلي عنه والاهتمام بدروسي.. وصدقتني المسكينة! وصرت أحاول كسب رضاها وصداقتها.. غيرت معاملتي معها، وصرت أبتسم دائمًا في وجهها وأمازحها فكانت سعيدة جدًّا بذلك، وهي مصدقة بأنني تغيرت فعلًا، ثم اغتنمت

فرصة نادرة، عندما أخبرتني بأنها اشـــترت قميص نوم جديد ســـترتديه في ليلة دخلتها، فطلبت منها أن ترتديه أمامي لأشـــاهده عليها، وبمنتهى البراءة خلعت ثيابها، لترتـــدي ذلك القميص المثيـــر.. وبمنتهى الخبث قمت بتصويرها بواسطة الكاميرا الموجودة على الهاتف الذي اســـتعرته من ســـليم، ولم تنتبه ليلة لما قمت به بخفة، وبخفة شيطانية اعتقدتُ بأنني حققت نجاحًا رائعًا بعد أن صورتها وهي شـــبه عارية.. وكنت أعقد النية، في ليلة صباحيتها، بأن أعطي الهاتف إلى ســـليم الذي شجعني علـــى تنفيذ الفكرة، وأحضر لي هاتفًا متطورًا جدًّا يقرب الصورة ويبعدها تلقائيًّا. قال وكيل النيابة لها وهو مستنكر هذا الســـلوك الشاذ: "يا ستار.. دا أنتِ عدوة لدود، مش حبيبة! متســـائلًا لماذا كل هذا؟! علشان خوفها عليكِ.. نجي يا رب".

فأجابته وهي منكسرة، ونادمة: "لكي أصبح مطمئنة، فـــإذا حاولـــت أن تهددني وتعكر علـــيّ صفو حياتي، كنت سأســـتغل هذا التصوير في أن أخرسها". فأجابها:

"تخريسها ولا تفضحيها بالحيا.. الحمد لله إنها اتقتلت"، ولكـــن لا يوجد أداة جريمة ولا اتســـممت، ولا ولا.. لما يطلـــع تقرير الطبيب الشـــرعي.. هو يضع خطًا أحمر أمـــام ادعائتنا. وفي هذه اللحظـــة أدركت حبيبة، مدى ظلمهـــا وفجورها في حق أختها المســـكينة، ثم أخرجت الهاتف من شـــنطتها وأعطته إلى وكيل النيابة.. وقالت له وهي متلهفة، وكأنها أحضرت الذئب من ذيله، أشك في چاكلين وچون، أصدقـــاء ليلة ونور، الله يرحمهما، كانوا يعقدون جلسات سرية مع بعضهم، وسمعتهم ذات يوم بالصدفة، لأنـــه كان ضجيج صوتهم يملأ المكان، ســـمعت ليلة ونور يقولان في نفـــس واحد إلى چاكلين وچون، حسبي الله ونعم الوكيل، ربنا سوف ينتقم منكما، وأجابهما چاكلين وچون، الثقيل لســـه جاي ورا.. بعدها جاءني اتصال تليفوني من فاتن، ولم أستطع أن أعرف ماذا كان يدور بينهم من حوار. فســـألها: "هل لديكِ من أقوال أخرى"؟ فأجابته: "لا". فطلب منها الانتظار، خارج المكتب، وطلب حضور عزيزة، حتى يتم استجوابها.

بدأ وكيل النيابة التحقيق مع عزيزة وسألها: "اسمك؟ وسنك؟ وعنوانك؟ ومهنتك؟". فقالت: "عزيزة عادل فودة، خمسة وثلاثون عامًا، ليسانس آداب، لا أعمل، أقطن مع أسرتي، الطابق الثالث من عمارة والدي".

ومنذ اللحظة الأولى، لاحظ لونها المائل إلى الشحوب، ونظرة عينيها المغمورتين بالدموع والحزن، فكرر السؤال نفسه، الذي طرحه من قبل على حبيبة: "ما نوع العلاقة بينك وبين ليلة"؟ فأجابته بسرعة البرق، وعيناها تحدقان، وتضغط على أسنانها: "بغير منها، على حب وعشق نور لها، وأنا اللي قلبي كان يريده، وذهني يفكر فيه ليل نهار". وفرح وكيل النيابة على أن التحقيق طاب وحلا بهذا الاعتراف، «الغيرة» مصدر الجرائم والخراب. فصمت بضع لحظات مندهشًا من كلام عزيزة، التي تتحدث عن الغيرة، كما لو كانت ليلة صديقتها أو جارتها، وليست أختها من أم أب واحد. وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة، فتستقر على وجهها المصفر وكان يلاحظ.. ارتباكها واضطرابها.. وسألها

وهو يضع يده على كتفها الهزيل: "هل انتقمتِ لنفسك بقتلهما ليلة صباحيتهما"؟ واستطرد قائلًا لها: "عندما خطب نور أختك وعُقِد قرانهما، اشتعلت نار الحقد في قلبك لأنه كان شابًا ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب، وكان قلبًا مخلصًا ينشد الدين والخلق القويم". فأجابته: "نعم، هو كان يتمتع بذلك، وأكثر، ولكنني لم أفكر لحظة أن أوذيهما"، فقال لها: "أنا لم أقل نهائيًّا كلمة أذى، أنا لست مسطولًا، أنا قلت هل انتقمتِ لنفسك بقتلهما ليلة صباحيتهما"؟ ولكن ما إن انقضت ثوانٍ قليلة من سؤال وكيل النيابة حتى دوى بكاء رهيب، لا يمكن أن يكون صادرًا إلا من ارتكب إثمًا كبيرًا.. وبدأت تقول بمرارة، وكان صوتها خافت: "نعم أنا الجانية، نعم أنا المذنبة، نعم أنا الخاطئة! أنا حياتي باردة كالمخزن الذي لم يؤتَ أي نافذة.. أنا حياتي مللة، ذلك العنكبوت الأسود الساكن، الذي يغزل نسيجه في كل ركن من أركان قلبي! كان الأهل والجيران والصديقات يعجبون بأدبي وثقافتي.. ولكني كنت أحترق بالشهوات،

والبغضاء"! وكان صوتها يتغير، فهو تارة غير مفهوم، وأخرى حاد.. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به إلى ما يشبه الهمس حين توجهت إلى وكيل النيابة، قائلة: "أنا حامل في الحرام، ثم صمتت، وكررت أنا حامل في الحرام.. وأي حرام"؟! وانتظر وكيل النيابة، بصبر نافد وآذان منتصبة؛ «اعتراف عزيزة، بخطأها مع نور، ثم اعترافها بعد ذلك بجريمة قتلهما، انتقامًا لشرفها».. ثم بعد ذلك، انقلب صوتها صراخًا ضعيفًا.. لأنها لا تملك ما تحتاج إليه من قوة، وعيناها تحدقان في ذلة وانكسار! قائلة: "إن صاحب هذه المعصية هو خالها (حازم)، الذي يكبرها بخمسة أعوام.. الذي اعتاد على ملامستها منذ عام"!

ساد الصمت مدة عشر ثوانٍ، وكان وكيل النيابة في ذهول، فاعتراف عزيزة نزل عليه كصاعقة! وسألها في غضب، كيف ومتى حدث ذلك؟ منذ مرور عام تقريبًا، وفي يوم مثل هذه الأيام الباردة، دقت الساعة الكبيرة في الصالة معلنة السابعة مساء، وأقعدني الكسل

والدفء وأنا غائصة تحت فراش سريري، وكانت أمي وليلة مع نور في مدينة دمياط، لشراء بعض من الأثاث.. وأبي المريض، نائمًا في غرفته.. طرق خالي الباب، ثم دخل، وقال لي بصوت حنون: "أنت نايم من البرد يا جميل"؟ فأجبته: "نعم، وطلبت منه أن يجلس بجانبي على السرير، ويحكي لي ماذا فعل في يومه من مغامرات". ففي ذلك اليوم كان مزاج خالي (حازم) عاليًا وفي السحاب، كما يقولون أهل المزاج، من متعاطي البانجو والحشيش، فهو من خمس سنوات، عاشر رفاق السوء، وأدمن المخدرات، نتيجة البطالة، فهو حاصل على ليسانس حقوق، ولم يجد أي وظيفة.. ولبثت حياته مقفرة موحشة، وعقله في ثورة دائمة. كان صاحب فلسفة استعارها من عقول متخلفة وملحدة لتوافق هواه وظروفه.. الحرية كما يفهمها هو، وكما أقنعني بها؛ هي التحرر من كل شيء، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ التي يقيدهم الدين والعلم والأخلاق، إن هؤلاء الثلاثة، أكبر أكذوبة في الدنيا، لا يجني من ورائهم المرء إلا

الضياع.. لبث وكيل النيابة صامتًا، وراح يبتسم ابتسامة السخرية والهزء، وقال في نفسه: "استغفر الله العظيم".

وعاودت السرد قائلة: "وفجأة انقطعت الكهرباء، وأصبح ظلام الحجرة دامسًا، وفجأة كانت جرأة جهنمية تنبعث من داخلنا، على نحو شهواني مشجع، حتى أن خالي أحس بالضعف، تحت تأثير إرادتي الصامتة التي شجعته، دون خوف، أو تردد"!

ضرب وكيل النيابة جبهته وهو يصيح قائلًا: "يعني منطق عزيزة والخال حازم؛ اللذة والمتعة بأيسر السبل والوسائل! دون مراعاة لخُلق أو دين أو فضيلة! يعني على الدنيا السلام"! فسألها، وهو يقلد نبرات صوتها بسخرية: "بما أن كل شيء تم بإرادتكما، فلماذا تقولين في بداية التحقيق؛ "نعم أنا الجانية، نعم أنا المذنبة، نعم أنا الخاطئة"! فأجابته وهي منكسرة: "زنا المحارم ترك في نفسي ذهولًا، وكنت دائمًا أسأل نفسي؛ أيلازمني هذا الحرام أبد السنين؟! أوليس هناك من مخرج؟! إنني لا أقل عن أولئك الذين يعيشون في سعادة، واطمئنان..

ولكنني أعترف لم أرَ في حياتي أسوأ مني.. فأنا أسخط على نفسي.. لا على ظلم القدر". وفكر في نفسه قائلًا: «يا لها من مأساة نادرة، ولكن لا أدري لماذا هذه المرة استوقفتني تلك الحالة، ربما لأن الحمل قد تجاوز الفترة التي لا يسمح فيها بالإجهاض، ولكن ولا بد من أن يكون هناك جهد أكبر، لا أدري.. لكن الذي أدركه تمامًا أنه لا بد من أن يكون هناك جهد مشترك من الجميع لمواجهة هذه الكارثة المروعة الموجودة فعلًا في مجتمعاتنا، والتي اسمها زنا المحارم»، ثم لبث واقفًا، بضعة دقائق، وقلبه يزداد حزنًا على ضياع القيم والأخلاق، ودقت الساعة العاشرة صباحًا، وأصبح وجهه شاحب اللون، وكان في حاجة إلى قسط من الراحة، حتى يستعيد نشاطه، وأغلق باب التحقيق، ليحتسي فنجانًا من القهوة.

وكانت المنطقة، مليئة بجو جنائزي. وعند وصول أسر الفقيديْن إلى منزل والد العروس، الذي كان مشلولًا في كرسيه المتحرك، فالمحنة واحدة، كان يسكب فيضًا من الدموع، ويصافح الأيدي دون أن يستطيع الكلام.

والأهالي والجيران والأصدقاء جلسوا بعضهم إلى جوار بعض، في شكل نصف دائرة كبيرة، في الصالة، والوجوه منكسة، والأفخاذ مثنية، والسيقان ترتعش، وهم يرسلون من وقت إلى آخر تنهدات كبيرة، وكل منهم ينتظر بفارغ الصبر طلوع النهار، ومعرفة ما توصلت إليه التحقيقات، وما قاله تقرير الطبيب الشرعي ودفن الجثتين لإكرامهما، فإكرام الميت دفنه.. وكان نباح في الشارع مستمرًا يتتابع في ناحية ما. وقال أحد الموجودين: "أنا سمعت، أن الكلاب تشم رائحة الموت، وهي كالنحل تنطلق من الخلية عند موت الأشخاص". ورد عليه آخر، قائلًا ووجه محتقنًا ومقشعرًا من هذا الفال: "على كدا، كل اللي في المنطقة سيموتون... فما أكثر نباح الكلاب"!

وفي تمام الساعة الحادية عشرة، استأنف وكيل النيابة التحقيق، وكان المطر يتساقط، والجو باردًا، فطلب من عامل البوفيه، فنجانًا آخر من القهوة فكان يشكو من صداع، بعد نوم مضطرب لم يرحه قط. لقد أفاق متعكر المزاج، عصبيًا، غير سوي، ورمى نظرة غضب إلى

مكتبـــه، فإذا هو قفص محبوس فيه معظم الوقت، بعيدًا عن أسرته. وسرعان ما طلب كوبًا دافئًا من النسكافيه، ثم أخذ يلبس سترة من الجلد، وبدأ التحقيق مع (چون).. وسأله: "اسمك؟ وسنك؟ عنوانك؟ ومهنتك؟".

فأجابه: "چون تادرُس إسكندر، خمسة وثلاثون عامًا، أســكن مع أســرتي في نفس منطقــة المجني عليهما، وأساعد والدي، في محل الذهب". وسأله: "ما هي مدى علاقتك بنــور العريس"؟ أجابــه: "صديق عمري، منذ الطفولة، وأخ وفي، وناصح كريم، وقلب متســامح".. ثم ســأله بصوت هادئ: "هل كان له أعداء"؟ أجابه: "كان دائمًا مســالمًا، يحبه الجميع، ولكن في يوم، وأنا أعبر الشــارع بســيارتي، لاحظته من زجاج السيارة، يتحدث بغضــب، وبصوت صاخب، مع مدام (غادة)، صاحبة الصالون الحريمي، ولكنني لم أبدِ اهتمامي، فكنت على موعد مع... ثم صمت عن الكلام! فســأله: "مع من"؟ وســرعان ما أجابه أيضًا وكيل النيابــة وهو يفتح فمه وهو ينطق اســم چاكلين قائلًا: "مع چاااااكلين، تمام".

فأجابه: "تمام يا باشـــا"، ثم أكمل وكيـــل النيابة حديثه قائلًا: "وچاااكلين ســـر ليلة، وليلة سر چاااكلين، ونور وچون حبايب من الصغر، تمام يا چون.."، فأجابه بكل ثقة: "والمسيح تمام يا باشا".

وبـــدأ وكيل النيابة يقفز تـــارة نحو النافذة، وتارة نحو المكتـــب وبعد لحظة، وقـــف أمام چـــون وهو يحدق مباشـــرة في عينيه، قائلًا: "فيه بعض الشـــهود، أثبتوا، مقابلتكم الشـــخصية والسرية، في منزل العروس، وأكدوا وجود مناقشـــة حادة بينكم أنتم الأربعـــة، أدت إلى أن العروســـين فوضوا أمرهما إلـــى الله فيكما أنت وچاكي في الوقت نفســـه، وأنت وچاكي أخبرتهما الثقيل لســـه ورااا! فثار قائـــلًا: "عرفني ما هو الثقيل"؟! فلاحظ أن چـــون كان يحاول أن يتفـــادى نظراته، وأراد چون على أن يعتـــرض، ولكنه تفكر في الأمر، فأحجم.. خوفًا من أن يســـتدعي وكيل النيابة چاكليـــن وينفضح أمرهما.. ثم قـــال: "كانا نور وليلة فوضـــوا أمرهما إلى الله، من قرار الهجرة إلى كنـــدا، دون معرفة الأهل.. أما عندما

كنا نقول أنا وچاكلين، الثقيل لســـه ورا.. المقصود كان هو ســـرقة محل والدي.. فنحن رأس الأفعى المخططة! فابتســـم وكيل النيابة ابتسامة سخرية وقال: "نعم، سرقة محـــل الدهب، وأنت كنت ضحية الحرامية، ونالك منهم ضربـــة على الرأس.. وتحرر محضر بذلك"! وبدأ چون يحكي متأثرًا بما فعله في حق والده، دون أن يقحم نفسه في تســـتر لا معنى له؛ إذ إنـــه بعد مقتل صديق عمره وعروســـه، أصبحت الحياة مظلمة كئيبـــة، قائلًا الكل يعـــرف بأن (چاكلين)، هي حلم عمري فكانوا يلاحظون أن وجنتـــي تتوردان عندما أنظر إليها، فهي فتاة جميلة ورقيقة، وقد تعدت ســـن الزواج، بســـبب انتظارها لي، وهذا الانتظار بسبب والدي الذي كان يرى والد چاكلين وضيعًا بعض الشيء لا يتمثل فيه النسب الذي يتمناه، غير أن كان يعرف عنه حســـن السلوك والتعليم.. وفي ذلك الجو المشـــبع بالغضب والحقد، قررنا أنا وچاكلين، أن نســـرق محل الوالد، وبعدهـــا نهاجر إلى كندا، عند خالة چاكلين، الخالة (مريـــان)، فهي تعيش هناك منذ

مـــا يقرب من أربعين عامًا مـــع زوجها، ولديهما مطعم هناك.. وعندئذ، طلبت من چاكلين أن تترك لي التفكير والتخطيـــط، واختيار الوقت المناســـب. وفجأة دار في خلدي أن الساعة قد حانت، عندما ذهب والدي المقدس (تادرُس)، من أجل أن يقضي يومين في كنيســـة السيدة دميانة، فكان والدي يعشـــق الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور الكنيسة، وأضواء الشموع، وفي أثناء ذكره لاسم السيدة دميانة، قام چون برسم الصليب على صدره، وهمهم بهذه الكلمات قائلًا: (توبة ام ابشـــويس اهري ايجون، او تي شيليت ام بي أخرستوس، تي أجيا دميانة، انتيف كانين نوفي نان ايفول)، فليسامحني الرب والســـيدة دميانة العفيفة الطاهرة، ثم أكمل قائلًا: "وقمت بتأجير ثلاثة بلطجية لاقتحام المحل، في أثناء تواجدي به، فتنكر أحدهم بزي منتقبة، والآخران ملثمين، واتفقت معهم أن يهددوني بالسلاح الأبيض، ويقومون، بسرقة ٥٠٠ ألف جنيه وبعض المصوغات، ثم يفرون مستقلين سيارة خاصة، بعدها قمت بضرب رأسي في لوح زجاجي

عقب فرار البلطجية، لتضليـــل والدي ورجال المباحث وإبعاد الشـــبهات عني، ثم ركع تحت قدم وكيل النيابة، وطلب منه أن لا يســـتدعي چاكلين، فهي ليست لها يد ولا تعرف أحدًا من هؤلاء البلطجية.. فأجابه بســـخرية واستهزاء: "لك الأمر والطاعة.. ولكنني سأستدعيها من أجل جريمة قتل العروسين... مبسوط يا چون"؟

فـــي ذلك الوقت، كان بعض مـــن الأهالي والجيران أمام المستشـــفى، ينتظرون تصريـــح الدفن، ثائرين من عدم وجود طبيب في المستشـــفى، إلا عدد ضئيل من الممرضات! وكانتا والـــدة العروس ووالدة العريس جنبًا إلـــى جنب، على الأرض، أمام باب المشـــرحة والوجوه محتقنة، والجبين مقطب، بعد فرحة لم تستمر إلا ساعات! وقد التقيتا في نفس الضعف البشـــري دون أن تتحركا، أكثر من الجثث الموجودة في ثلاجات المشرحة.. وتقول والـــدة العروس بطريقة هســـتيرية وبصوت متلعثم فزع: "هم مســـتعجلين على إيه؟ أنا نفســـي أحتفظ بهما"، ثم تضـــرب على صدرها، قائلة: "يا حبايبي يا بناتي، فهي

كانـــت تقصد موت ليلة مع ضيـــاع بناتها الأخريات.. فكان قلبها ينبـــض ويحس، بأن هناك مصائب وخفايا، سوف تصل إليها التحقيقات مع بناتها، ويُفضَح أمرهن! بينمـــا والدة العريس، كانت أكثر رزانة وهدوء، ثم قالت: "كلهم بناتنا، وأولادنا، فنحن في ســـفينة واحدة غارقة في ظلمات الموت"، وبدأت تتذكر حنان وعطف ابنها نور، فكان نعم الابن، وبدأ شريط ذكرياتها معه، يسير كخيط موسيقي.. كوجع ناي حزين.. كألم تعجز عن الإفصاح عنه.. إلا بذرف دموعها! وحاولت أن تصف لنفســـها، مـــوت الغدر، موت الفجأة.. لحظـــات ما بين حضوره الدائم بيننا بكل الحواس... وبين رحيله عنا كحلم... فقد رحل.. وبقيت لنا الحسرة.. لنا الله بعدك يا ولدي..

في أثناء ذلك الوقت، قـــد بدأ وكيل النيابة التحقيق، مع مدام غادة، صاحبة الصالون، وكانت في الخامســـة والأربعين مـــن عمرها، بارعة الجمال، وقد امتازت عن الأخريات، بثيابها البديع، مثل فنانات الســـينما، ترتدي معطفًا أســـود من القطيفة، وفي يديها قفازان حمراوان،

وتتعطر بأجمل الروائح العطرية..

سألها وهو يمط شفتيه عند كل نفثة دخان: "هل تعرفين نور"؟ فأجابته بابتسامة هادئة، وصوت ناعم: "طبعًا أنا أعرف نور وليلة كمان، من أحسن الشخصيات التي تعرفت عليها في حياتي".

فقال لها، وهو يستنشق رائحة عطرها التي تفوح وتنتشر في المكتب: "من الطبيعي ومن الوارد أنكِ تعرفين ليلة، فهي جارتك، وإحدى زبوناتك، لكن.. نور"! ثم صمت قليلًا، فكانت مدام غادة تفتنه بجمالها، وبأريج عطرها، الذي كان يحار في التكهن بمكانه، أهو ملابسها، أم جسدها؟! ورددت عليه متسائلة: "ماذا به نور"؟

فتوجه إليها مرتبكًا لأنه قد ترك العنان لعواطفه أمام زينتها وجمالها، فاختل توازنه، وانكفأ لونه، وارتجفت أوصاله، وكاد يفقد رشده، ولكن بسرعة فائقة، عاد إلى ثوابه وسألها: "أكدت التحريات والشهود، عن مشاجرة بينك وبين نور، قبل زفافه بيومين، فما سبب هذه المشاجرة"؟

فأجابتـــه وهي تركز في عينيه، وبمنتهى الرزانة: "أنا طبيعتي لا تحب العنف والمشاجرات، فليس لهما مكان في قاموســـي الشخصي، وإذا حدث ذلك، ممكن نسميه حوار بصوت عال، اتفقنا"؟ فأجابها وكاد يعض شفتيه: "اتفقنا"، ثم اقترب منها وقال: "الحوار الذي كان بصوت عال مع نور، كان سببه زبونات المحل؟ ولا كانت هناك علاقة من علاقات العشق والهوى بينك وبينه، ثم تخلى عنك، فانتقمتِ بالقتل.. لا داعي للإنكار"؟!

ونظر إليها فلاحظ صدرها يمتلئ ويتصلب كالأفعى بهذه التســـاؤلات.. فأجابته: "أنا عندما أعشق، لا أقتل، وعندمـــا أكره أيضا – لا أقتـــل، فالحياة حياة، يجب أن نســـتمتع بها، فهناك أساليب أخرى ســـهلة غير القتل. واســـتمرت في حديثها، ودمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعًـــا، وقالت: "جاءنى نور، ووجـــه يثور بالغضب، وقال لي؛ سأذهب إلى الشرطة، لكي أبلغ عنك، وسأغلق لكِ هذا الصالون. فأجبته: خير يا نور، هل أنا، أو أحد من العاملين أو العاملات، أســـاء لك بشيء؟ فرد قائلًا:

الإساءة ليست لي شخصيًا، ولكن أنتم، ستوسخون سمعة المنطقة! لقـــد لاحظت أكثر من مرة، دخول الشـــباب إلى الصالـــون، والجميع يعرف أنه صالون للحريم.. ثم طلبت منه أن ندخل المحل، من أجل أن يشرب فنجان قهـــوة، وطلبت منه الهدوء ولكنه رفض، ثم أشـــار لي بسبابته، مزمجرًا، ويقول أنا مش داقق عصافير يا مدام غادة! دلال حامل، والكل عارف إن زوجها، بأنه ليس فيه للنســـوان.. عمي (مجدي)، الرجل البسيط الغلبان، يشتغل في الصالون، من أجل لقمة العيش، ولكن الفأر بـــدأ يلعب في عبي لما رأيتها ثلاث ليالي متتالية، تأتي إلى الصالون، في وقت متأخر، وكنت تستقبلين، بحفاوة شابًا ليس من أهالي المنطقة، ودخلت دلال إحدى غرف الصالون ومعها الشاب، وأنتِ تتركينهما وتغلقين الباب عليهما بالســـاعات.. ثم سألته بسخرية، لماذا لم تذهب إلى زوجها؟ فالمنطقة كلها تعرف أن (دلال)، إنســـانة غير سوية، تستخف نجم زوجها، وتضحك عليه بإعطائه حبـــوب منومة، بدلًا من دواء الضغط والســـكر، حتى

تشبع رغباتها مع (حمادة)، الشاب ذو العضلات البارزة في بطـــن ذراعه وده واد لعبي يبيـــع الأفلام الممنوعة للمراهقين، والمعروف باســـم (الحتـــة الزفرة للمنطقة)، وكان يقابلها خلســـة على الســـطوح، بعد انتهاء ورديته في المقهى، واعتادت (دلال) على مضاجعته! ثم طلب مني نور، أن أتســـتر على دلال، بعد أن استغاثت هذه الأخيرة به، وبعدها طلب مني أن أبحث عن مكان آخر للصالون بعيـــدًا عن المنطقة.. وفي تلك اللحظة، كنت أتسم بالهدوء والصبر، وطلبت من نور، إعطائي فرصة لمدة شـــهر، حتى أجد حلًا أســـاعد به دلال، وأعطي لنفسي الفرصة للبحث عن مكان آخر للصالون، وطلبت منه عدم الفضيحة، وبالفعل حفظ العهد حتى يومنا هذا، بعـــد أن لقي ربه.. فموته كان نجاة له من وقوع مصيبة حتمية، كنت أنظمها له ولعروســـه، في ليلة الصباحية، بمســـاعدة الحاج درغام، من أجل إزاحـــة الجميع عن طريقـــي! ثم قالت: "أولًا، أخذت (دلال) وذهبت بها إلى طبيب معروف متخصص في الإجهاض، واتفقت معه

على فعل شـــيء لم تكن تتصوره، أن يضاجعها مقابل التخلص من الفضيحة، فاستسلمت ووافقت لهذا الطبيب الشـــيطاني". وجاء دور إعداد مصيبة نور وعروســـه والحاج درغام!

فرد عليها قائلًا: "يا ســـتار يا رب، أي مصيبة"؟ ثم عاد وقال لها مندهشًا: "هل تقصدين الحاج درغام رجل البر والإحســـان"؟! فأجابته وهي تسخر من هذا الاسم: "نعم، رجل الشـــر والحرمـــان"؟! وأصبحت نبرة صوتها قاسية، وارتســـم على ملامح وجهها الكره والغضب من درغام، صاحب الوجه الســـمين المحمـــر، الذي يبدو وكأنه طلي بنقيـــع حامض من "الكركديه"، والأكثر من ذلك، قد زاده شـــعره الأبيض، ونظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء! ولم يكن ثمة من يدري ماضيه، فهناك من يقول إنه كان بائعًا متجولًا، بينما يقول آخرون إنه كان يتاجر بأســـاليب تجارية غير مشروعة سمحت لـــه بامتلاك أفخم محل للملابـــس، الذي كان أهلًا لأن يجتذب "السيدات الأنيقات"، ومن بينهن، أنا طبعًا، فكنت

آخـــذ أرقى الأزياء، دون دفع نقود، وكان الحاج درغام، يقول بأن النقود ليســـت مهمة، فكنـــت أقوم بتعويضه بالبديل؟! ثم استكملت حديثها قائلة: المهم، درغام كان معروف لي بحنكته، وواضح أمامي كالشمس، فلا يقدر عليه أحد من خصومه، ومـــن المعروف عنه أنه قليل الوفاء بالعهد، ولم يكتف خلال حياته الطويلة بالكســـب الحرام، بل لم يتورع عن أن يسطو على أعراض النساء والبنات؟! وقالت وهي نادمة، فأنا كنت حلقة الوصل بينه وبين هؤلاء النساء وكنت أقوم بدور البطولة فيها؛ حيث أجريـــت اتفاقًا مع درغام على أن أقوم بتصوير زبونات المحل عن طريق كاميـــرات مخفية مقابل مبالغ مالية، وكنت أضع الكاميرات في غرفة تجهيز العرائس؛ حيث يقمن بنـــزع ثيابهن، وكنت أوجهن إلى الكاميرات بحجة الإضاءة وعدم الرؤية، وكنت آخذ الأشـــرطة وأعطيها له من أجل أن يشـــاهدها بجلســـاته الخاصة، هو ومن معه، فكان يسيل لعابهم. وهذا أيضًا ما كنا نرسمه ليلية عروس نور، وقالت ذلك، في انفعال شـــديد، وكادت أن

تنفجر لتتنفس عن صدرها الكظيم، انتقامًا من هذا الرجل السمين درغام، الذي كان يتاجر بأعراض النساء، وهي كانت أولهن! ولكنه كان يتغير، ويصبح إنســـانا لطيفًا، حنونًا، عندما تأتي سيرة ليلة، فهو كان يعشقها، ولكنها فضلت عليه نور... وتســـتمر في كلامها وطلبت من وكيل النيابة، أن يســـمح لها بالتدخين؟ ثم قالت: "ذات يوم قال لي درغام، وهو يلهث كالكلب، أريد أن أنالها.. وبأي الوســـائل، ولكِ عقار جديد. كم أنا أريدها، إن لها في الحقيقة عينين تخترقان قلبي كالرصاصة ويا لشحوب بشرتها، إنني أعشق الشاحبات. وكان يبكي مثل الطفل، ويقول بصوت مخنوق: اقطفيها لي.. وتبسمت وأنا قلبي يشتعل حرقة، لأنني كنت أريده لي، ليس حبًا له، ولكن طمعًا في ثرائه، ثم قلت له: "هل أنت متيم بها؟" ولم أكن أحسب أن حبه لليلة يصل إلى هذا الحد، لكن درغام الذي يبدل النساء كما يبدل الحذاء، كان يجلس أمامي الآن، وجهه مُربد وجفناه يرتعشـــان، وقد عض شـــفته السفلى حتى كاد يقطعها، أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض

في عصبية بالغة بعصاه، خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبســـه عدة مرات، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس، ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم ثم يســـكت، ثم قال، وهو يدمع: "آه ومن يدري"! وانتهى اللقاء على اتفاق جهنمي بيننا، هو أن أذهب إلى العروســـين ليلة صباحيتهما، وأبارك لهما، وأشكر نور على رجولته واحترامه لكلمته، وأخبره بالكذب، أنني وجدت مكانًا جديدًا، ثم أتظاهر بالمرض، مدعية وجود مغـــص كلوي وأطلب منهما مســـاعدتي لأذهـــب إلى بيتي فالكل يعـــرف أنني أعيش وحيدة في شـــقتي، وكنت متأكدة من شهامة نور وطيبة ليلة، التي لا تتركني في محنتي حتى الصباح. بعدها أســـقي ليلة عصيرًا به منوم، وبمجرد أنها تشعر بدوار وتفقد الوعي، كنت ســـأتصل بدرغام هاتفيًا، لينال منها! وكنت سأقوم بتصويرهما، وبذلك كنت ســـأضرب عصفورين بحجر، إخراس نور، وفضيحة درغام.. ثم تمتمت وقالت: "كم أنا إنسانة جبانة وحقيرة.. ما ذنب نور وما جريمة ليلة لأنتقم منهما"! ثم رسمت ابتســـامة على وجهها وأحنت رأسها

وهي جالســـة، وقد أســـندت ظهرها في تراخ واستهانة، وقالـــت بلهجة مطمئنة: "إنه ليوم عظيم في حياتي، يوم أن اعترفت بخطيئتي، وانفجر هذا المســـتودع الساكن في نفسي، وتصاعد لهيبه حتى حرق مَن أذاني وتسبب لي بالعذاب، وكان المقصود فضيحة درغام.. بعد ذلك أمر وكيل النيابة، بانصراف مدام غادة، واستدعاء الحاج درغام وچاكلين، وباقي أهالي العروسين، للتحقيق معهم.

ثم دقت الســـاعة الثانية عشـــرة ظهرًا، إذ لاح إلى وكيل النيابة كل شـــيء ملتفًا في جو أسود وغامض، ثم سأل الضابط (أشرف مراد): "هل حضر والد العروس"؟ فأخبره الضابط، بمرضه، فهو عاجز، قعيد في غرفته، لا يستطيع الحركة منذ عام مضى، ثم قال وكيل النيابة وهو في حالة اســـتغراب: "ازاي الكلام ده! هو أول من أشـــارت إليه أصابع الاتهام، حسب ما ورد في التحقيق مـــع زوجته". وأصر على الذهاب إليـــه، ولكن بعد أن يصلي الظهر، وقال للضابط وهو يبتسم: "من المفروض أن أتوضأ بعد الكلام مع مدام غادة، وإن كان بإيدي آخذ حمامًا دافئًا".

وتوجـــه وكيل النيابة إلى منزل والد العروس، وعندما دخل الشـــارع، بسيارة الحكومة، ذات الســـرينة العالية الصوت، أحس شـــريف بيه، أنه يستنشـــق هواء باردًا، محمل بنسمة خانقة، وأوشك المطر أن يتساقط.. فانتظر لحظات وهو يحدق بنظره للعمارة التي يســـكن فيها والد العروس، كانـــت مزينة بمصابيح مظلمة، التي انتزعت منها الحياة والنـــور، فأصبحت كالقبور.. ثم صعد إلى الطابـــق الثالث من العمارة، وهم بالدخول إلى الشـــقة، التي يفـــوح منها عطرًا جنائزيًا، وضوءًا أصفر خافضًا، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من النســـاء والرجال، فالكل ينتظـــر تصريح الدفن أمام المستشـــفى.. وعندما دخل غرفـــة الحاج عادل فودة، وجده وحيدًا وراقدًا على فراش الموت. إنســـانٌ تكالبت عليه الأسقام والهموم، ومصابٌ بسرطان في الرئة والعظام، وكثرت مراجعاته للمستشفى عاجزًا عن الحركة!

وقـــف وكيل النيابـــة لحظات يفكر في نفســـه، ماذا أقول له، وعن ماذا أســـأله، وبمـــا أتهمه؟! فلاحظ أن

الحاج عادل، يشـــير إليه بيده، أن يجلس بجانبه، فوق الســـرير، وقال له، وهو غير قـــادر على الكلام، يقول كلمة، ويسكت عشرة: "أنا عارف مَن يتهمني"؟ ويصمت ثواني إنها أشجان زوجتي وأم بناتي، غلبانة هي وبناتها، اســـتحملوا فوق طاقتهن معي.. ثم أصدر تنهيدة طويلة بهـــا يأس مميـــت، ثم قال: "ربنا يمهـــل ولا يهمل، فقد ابتلاني بالأمراض، وابتلانـــي بأخذ نور عيني ليلة، أم أبيهـــا، كانت هي التي تصطحبني عند كل مراجعة إلى المستشفى، كانت الصدر الحنون، اللي أستند عليه، وهي منهمرة الدمع، تناشـــدني أن أتحلى بالصبر والرضا".. وفي أثناء حديثه، أصابه سعال شديد، جعله يبصق دمًا! ورأى وكيل النيابة، أن من واجبه، أن لا يزيد من أسئلته، نظرًا لحالته الصحية المتدهورة، ومصيبته في وفاة ابنته، وفضيحته في المســـتقبل بسبب حبيبة وعزيزة... إلا أن شيئًا خطف نظره! مخلوقة صغيرة وجميلة أحسها بجانب الحـــاج عادل فودة.. وعندما نظر إليها أَســـرته بعينيها الخضراوين اللامعتين! يتابعها وهي تحنو بخفة ورشاقة

على الحاج عادل، وكأنها ابنته التي تواسيه في محنته! وسأل نفسه، وهو يختلط في غموض مع ما يحيطه من أشـــياء وســـط الصمت والبرد: "أتظن أن هذه المخلوقة الضعيفة قادرة على مواســـاة هذا الرجـــل في ابتلائه"! يا الله! يـــا لهذه المخلوقة الحنون، تصر على أن تكون بجانبـــه وهي تبدو مطمئنة في جلســـتها معه! عجيب أمـــر هذه الهرة، لم تدمع دمعة واحدة تفضح لنا حزنها! لم تحاول استمالتي نحو ضعفها وأنا الأقوى والأشد، بل بدت أمامي رغم أنفي! إنسانًا في أسمى حالاته.. إنسانًا خلا من الخيانة، والطمع، والزنا، والسرقة، والكذب، إلخ. إنهـــا حقًا نهاية مأســـاوية لأب جاحد.. ذهبت صحته، وضاعت بناته! فقام بإسدال الستار على نافذة الغرفة.. وعندما نهض وتهيأ للخروج، ســـمع صوت امرأة، يأتي من الشـــقة المقابلة لشـــقة والد العروس، هذا الصوت يصرخ ويقول: "أنا سأســـجنك، وسأعترف بما شاهدته.. يا حيوان، يا سافل، يا واطي"!

فانتظر وكيل النيابة لحظات، ثم طرق باب الشـــقة،

ففتحت له الباب، امرأة عصبية المزاج، حادة اللســـان، ترتدي عباءة ســـوداء، وتربط رأسها بطرحة سوداء، ثم قالت له بصوت عال: "أفندم أنت كمان من زبائن البيه"؟ فأجابها: "لا أنا من زبائن الواطي.. الســـافل"، وأمر من معه من ضباط ومحضرين، أن يأتوا بها، هي ومن معها إلى القسم للتحقيق..

وعندما وصل إلى القســـم، كانت الثالثة عصرًا، وبدأ يسأل بسرعة جنونية فقد نفد صبره من هذه القضية، التي تفتح فمها لجرائم أخرى باطنية: "ما هو اسمك؟ وسنك؟ ووظيفتك؟". فأجابته بأســـلوب فيه كبرياء، وتحت تأثير نفســـي حزين ومميت: "هو أنا في محكمة! اسمي راوية سالم العريان، أربعون سنة، ربة منزل، أسكن في الشقة المجـــاورة للحاج عادل فـــودة، بالطابق الثالث". وتوجه إليها قائلًا: "لقد ســـمعتك وأنتِ تقولين أنا سأســـجنك، وسأعترف بما شاهدته.. يا حيوان، يا سافل، يا واطي"! وكان يحســـس بيده على ذقنه، ثم ســـألها ماذا شاهدتي وماذا تعرفين؟ فطلبت منه أن يســـمع قصتها من البداية

قائلـــة: "أنا كنت في الماضي أتمتع بالجمال والجاذبية، وكان بي شـــيء من الغرور، نتيجـــة الإطراء وعبارات المدح التي كنت أســـمعها ممن حولي وكلها تدور حول شيء ليس لي يد فيه ولا دور ألا وهو الجمال، غير أن أيًـــا من تلك العبارات لم تكن تثني على خُلقي أو ذكائي أو حلمـــي، فقط انصب اهتمام الآخرين بجمالي، وكنت أُطرب حقًا لتلك العبارات وتكفيني وتشبع نفسي بالسعادة. فكنت أدلل نفســـي أمام زوجي وكان لشـــدة إعجابه بي يبتسم لي حين يجد راحتي في مواضع الدلال، لكنه في قرارة نفسه لم يكن مقتنعًا بهذا المبدأ. أنجبت (عمر) وأنا في حيـــاة مليئة بالحب المتدفق من زوجي، والرغبة في الدلال الدائم مـــن جهتي، ومثل كل الخلافات الصغيرة والمشـــادات العابرة التي تحـــدث في كل البيوت، كانت تعتري حياتي، بعض لحظات التعكير والشـــوائب، التي كنـــت أتجنبها، لأنني كنت على قـــدرٍ من الوعي الذي يســـتطيع إيصال الســـفينة إلى بر الأمان إلى أن فقدت ابني الوحيد، السنة الماضية، الذي لقي مصرعه، عقب

قفزه من السطوح لرسوبة بالإعدادية، كان يخشى عقاب والده له بالضرب، وتنفيذ تهديده له بأنه سوف يطرده من البيت، وقام ابني فلذة كبدي بتوفير العقاب والطرد وانتحر، وتركني في مأساة ومعاناة حقيقية.. فمنذ موت ابني لم يُسمع في الشقة صخب كهذا الصخب، الذي سمعته أنت، كانت النار مختفية تحت الرماد منذ وفاته، وكان يحدث من حين إلى آخر أن يقع شيء من الأخذ والرد بيني وبين المعروف أنه زوجي، الذي لم يلمسني ولم يعطني حقي الشرعي في المعاشرة الزوجية، منذ خمس سنوات، ولكنني كنت أتحمل من أجل ابني، الله يرحمه، فأنا مقطوعة من شجرة. وأصبحت أعصابى تتوتر، وكانت دمائي تفور إلى أن طفح الكيل، فانفجرت الصاعقة في هذا اليوم الذي سمعتني فيه، وأنا أخرج من بين أسناني جميع أنواع الشتائم واللعنات، إنه لا بد من معاقبة هذا النجس الخائن، ثم بصقت على الأرض! إنني كنت على قناعة بأن زوجي (يسري) يخونني وأنه أصبح باردًا جنسيًّا بهذه السن المبكرة غير صحيح. وهجره لي

ما هي إلا حيلة عاريـــة، أحيانًا يأتي تعبًا ويريد الخلود للراحة، وأحيانًا كان قلقًا ومشغولًا، لدرجة أنه كان يحمل هاتفه المحمول في كل مكان يذهب إليه في البيت حتى في الحمام، وكان يبـــرر ذلك بأن هناك مكالمات كثيرة تأتي له من تجار وأصحاب عمل ويفضل أن يرد عليها فور! ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال ذكاء وظرفًا، إلا أن فضحه الله أمامي، في هذا اليوم، عندما طلب مني تجهيز الغداء، وكنت مستعجلة حتى أذهب إلى أهالي العروسين في المشرحة، فأسرعت للذهاب إلى المطبخ، ولســـرعتي فتحـــت باب الثلاجة بقوة فوقعت علبة البيـــض التي كانت في رف الثلاجة على الأرض. وفُجِئت بوجود (المحمول) على الأرض، فقمت بتنظيفه، فكان سابحًا في زلال البيض، وتصفحت هذا المحمول في ثوانٍ دون أن يشـــعر هذا المدعو إلى اسمه زوجي واكتشفت بالصور والفيديو ورسائل الجوال ممارســـته للواط وكذلك الجنس مع نساء حتى في شهر رمضان الكريم! وأحسســـت بانهيار ولا أكاد أصدق ما

شـــاهدته من فيديوهات على جواله. وقمت بتهديده، كما ســـمعت.. ثم أعطت وكيل النيابـــة، الهاتف المحمول، وكانت رائحته عفنة من آثار سائل البيض.. وطلبت منه القصاص لابنها، والخلع لها، والسجن لزوجها! فأجابها وكيل النيابة مؤكدًا: "نعم، نعم".

في تمام الســـاعة الخامسة مســـاءً، قد وصل تقرير الطبيب الشرعي إلى وكيل النيابة؛ حيث انتهت مصلحة الطب الشرعي من تشريح الجثتين، وقال التقرير المبدئي للطب الشرعي إن وفاة العروس حدثت نتيجة نزيف حاد مميت وتمزق في أعضائها التناســـلية تعرضت له إثر زواجها.. بينمـــا وفاة العريس، نتيجة تناوله جرعة زائدة من الفياجرا، أدت إلى خفقان في قلبه ودقات ســـريعة، مصاحبة لقيء كما لو كانت أعراض تســـمم. بالإضافة إلـــى تعرضهما إلى اختناق من غاز ســـخان الحمام.. وعدم وجود شبهة جنائية.. وسرعان ما أمر وكيل النيابة بتســـليم الجثتين لذويهم، وإعطائهـــم تصريح الدفن، ثم ارتفق نافذة المكتب، ملقيًا ببصره إلى الشـــارع ومتأملًا

رذاذ المطر، وكأنه يخاطب نفســه في حيرة قائلًا: "إنها شهوات الجســد؛ السرقة، والحقد، وجشــع المال، وزنا المحــارم..."، اختلطت جميعًا لتســرد لنا ظلم أنفســنا لبعضنا وظلم المجتمع لنا. ثم ذرف دموع الحســرة على واقع بناتٍ ونســاءٍ.. كل واحدة منهن تحمل في ذاكرتها حكايات عدة من معاناة وقهر. قررن أن ينفجرن ويُعلنَّ العصيان ضــد ظروف معينة، فكان مصيرهن الضياع وســقوط أحلامهن في بئر الحرمان. فحادث نور وليلة، كان سببه الرئيســي، الأفراح والأشجان الممزوجة بكل المتناقضــات، في زمن تاهت فيــه القيم والأخلاقيات، والجانــي هو نحن فلا مســتقبل لمجتمع نصفه الآخر مكبود ومكبوت!

وفي النهاية شــارك حشــود من الأهالي والأصدقاء والجيــران، عقــب صلاة العشــاء في تشــييع جثمان العروسين، وإنهاء حياتهما قبل أن تبدأ، وتحويل فرحتهما إلــى مجرد حلم عابر، بزفة جديــدة لحياة أبدية جديدة، وسط نواح وبكاء في مشهد جنائزي مهيب، شهدته أعداد

غفيرة، تزاحموا لحمل النعشين الصامتين للعروسين، فكانوا يسيرون في وسط الطريق وكان الشارع مقفرًا في هذه الساعة الشتوية من الليل، كان لا يبدو عليهم أنهم عابئون بالمطر، كانت أحذيتهم تقرع أرض الشارع. واقتربوا من أحد المصابيح فانتصبت أشباحهم وتطاولت كثيرًا، ومن سوء حظ بعض الرجال الذين يرتدون جلبابًا، كانت تنغمس في الوحل ملطخة بالبقع السوداء.

وأخذ الحمالون المتعبون يتباطأون، وأخذ النعشين يتقدمان في دفعات مستمرة كزورقين يعلوان ويهبطان عند كل موجة، ثم تم الدفن، تحت أضواء الكشافات، والدة العروس تركع على ركبتيها فوق الأرض، وهي تصيح مع السلامة، وصدرها يتصدع من النحيب، وتزحف نحو قبر ابنتها، كأنها تريد أن تُدفن معها! بينما والدة العريس تبكي وتختنق بالشهقات التي تهزها. وفي أثناء العزاء، لزم البعض الصمت، ولزم آخرون الهمز واللمز، ولزم آخرون الحديث، فمنهم المثقف الذي يقول الله يرحمهما، كانوا ضحايا المتعة الحلال، ولكن بطريقة خاطئة، عن

طريق تناول مثل هذه المواد المنشـــطة جنسيًّا، وإذا تم اســـتعطائها تكون في حالات الضرورة وتحت إشـــراف طبيب مختـــص، ثم قال يمكن يكون في موتهما، عظة وموعظة للشـــباب بعدم التقليد الأعمى، حتى لا تتكرر مثل هذه الحوادث.. ثم قال شـــخص آخر ســـاخرًا: "يا نهار أســـود، حبوب الفياجرا تموتهما فطيس كالفئران"! وتقدم الشخص الذي قال هذه الجملة الأخيرة، نحو والد العريس، وهو يصطنع تودداً زائفًا، ماســـكًا يده، قائلًا: "اجمد يا حاج"! وقـــال آخر: "من المعروف، أنه يحب السياسة، وش الرئيس الجديد، هم وغم على العروسين". فرد عليه آخر: "حرام عليك، دا راجل طيب، حافظ كتاب ربنا، وحسن زجاجات الزيت في التموين".. وفجأة عاد إليه مندفعًا بكل ما أوتي من قوة فجبهه بضربة في صدره فأســـقطه. وأطلق الرجل كلمة آه عميقـــة، وتمدد على الأرض في ضجة صمـــاء، ولم ينهض. وتحول العزاء إلى مشاجرة كبيرة بين مؤيدي الرئيس الجديد ومعارضيه، أسفرت عن سقوط ضحايا آخرين!

الكاتبة في سطور:

- علا عبد العزيز رياض من أبناء مدينة بيلا، التابعة لمحافظة كفر الشيخ.
- حصلت على ليسانس آداب وتمهيدي ماجستير من كلية الآداب (جامعة المنصورة) وحصلت على الماجستير بتقدير ممتاز من كلية الآداب (جامعة الزقازيق) من خلال دراسة نقدية تحت عنوان «الجريمة الأخلاقية» في روايتيّ: مدام بوفاري لـ جوستاف فلوبير، والحرام لـ يوسف إدريس دراسة مقارنة.كما حصلت على الدكتوراة في الأدب الفرنسي مع مرتبة الشرف الأولى، وكانت الرسالة تحت عنوان«البحث عن الهوية أسبابها وآلياتها» عند ماري نديايي من خلال ثلاث روايا:

«لمستقبلٍ أفضل» الصادرة عام ١٩٨٥م، «في العائلة» الصادرة عام ١٩٩١م، « روزي كارب» الصادرة عام ٢٠٠١م.

- وهي مدرس بالمعهد العالي للغات بالمنصورة.
- كما أنها عضو اتِّحاد الكتَّاب والمثقَّفين العرب بباريس.